دمشق وغوطتها بين التقاليد الموروثة من العصر السومري – الأكادي والتجديد الأموري / العموري في القرن السابع عشر ق.م. على ضوء نصين مسماريين مكتشفين حديثاً في تل سكا قرب دمشق

الأستاذ الدكتور فيصل عبد الله*

الملخص

الغاية من هذا البحث هي نشر ودراسة نص مسماري جديد ثان عثر عليه المنقب أحمد فرزت طرقجي في تل سكا قرب دمشق في عام 2010. وكان قد عثر على النص الأول قبل ذلك بعامين. ونشر عنه بحثاً مطولاً في هذه المجلة المحترمة (مج 27، 3 + 4، 2011). وتطلب البحث هنا نشر النص الأول، إلى جانب الثاني لتقديم عرض جديد لمضمون النصين، من خلال نقد تاريخي خارجي وداخلي. وكذلك تحليل لغوي وفقهي إلى حد ما.

تسمح لنا هذه الدراسة تتبع واقع اللغة الأكادية المستعملة كتابياً وتطوّرها منذ القرن السابع عشر قبل الميلاد في منطقة دمشق (تل سكا) كما يستدل من التأريخ التقريبي للنص الأول. كما يثبت النص الثاني الجديد ما جاء في النص الأول من وجود سلطة إدارية

* قسم التاريخ– كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة دمشق

وسياسية في محيط غوطة دمشق، قبل أن تُعرف دمشق بالذات ويرد اسمها في أقدم الوثائق (راجع البحث أعلاه من أجل أسماء دمشق وتاريخ ذكرها في الوثائق).

هذا ويخلص البحث من خلال دراسته ونقده التاريخي واللغوي إلى حقائق جديدة مفادها أن سلطة سياسية وواقعاً حضارياً قد وجدت في حوض غوطة دمشق قبل أن تعرف باسمها الحالي بأكثر من أربعة قرون. ولكن تبقى مشكلة هوية مركز دمشق الأثري الأقدم، مجهولة بسبب عدم القيام بأسبار أثرية في عصور البرونز لتحديد مكان وجود هذه الطبقة إن وجدت!

المقدمة:

كان لظهور نصين مسماريين (سكا 1 + سكا 2) في تل سكا قرب مطار دمشق الدولي (20 كم جنوب شرق دمشق)، أثر عظيم في تاريخ دمشق القديم. وأثبتت حفائر الطرقجي (أحمد فرزت)[1] في هذا التل وهذان النصان أن تاريخ دمشق المكتوب قد دخل عالم النصوص المسمارية في بدايات العصر الأموري/ العموري، أي منذ القرن الثامن عشر. وبالتحديد بعيد سقوط مملكة ماري الشهيرة على يد حمورابي البابلي.

ولهذا، جاء هذا البحث بقصد نشر المعلومات والمعطيات الجديدة لهذين النصين من خلال نتائج التنقيبات التي يديرها الطرقجي منذ أكثر من عشرين عاماً، ويقدم لنا معطيات حضارية في كل موسم. فقد سبق وحاضرنا سوية في **الكوليج دوفرانس** عن هذه المعطيات، وكذلك في دمشق، ونشرت ترجمة النص الأول والتعليق عليه إثر اكتشافه في مجلة مهد الحضارات الصادرة عن المديرية العامة للآثار والمتاحف وبحثاً مطولاً في مجلة جامعة دمشق للآداب[2]. وهاهنا وبعد اكتشاف النص الثاني في عام 2010 الذي يُعدُّ وثيقة قضائية، إلى جانب النص وهو رسالة شخصية ملكية، وقد أدخلت عليه تعديلاً في الترجمة من الأكادية بعد إلقاء المحاضرة في باريس، إثر ملاحظات الزملاء المختصين. ونقدم هذا البحث الجديد، الذي تناول المعطيات الحضارية الجديدة، والأثرية والكتابية، وفصلنا في الشرح والتقويم التاريخي، وبيّنا مدى علاقة دمشق المركز

(1) ألقيت محاضرة أولية عن هذا النص الجديد (سكا2) في جامعة روما في تموز 2011 ونحن ننشر النص هنا أول مرة. وسينتج عنه أكثر من بحث سأنشرها تباعاً، أمَّا الأول فقد ألقيت عنه محاضرة في باريس الكوليج دوفرانس 2009. وأتقدم بالشكر لمديرية الآثار والمتاحف بدمشق ومدير التنقيب في تل سكا، السيد أحمد فرزت الطرقجي، أول مرة الذي أشرف على رسالته في الدكتوراه، وأوجه شكري وامتناني إلى جامعة دمشق التي أسهمت بتكاليف سفري إلى روما وباريس لإلقاء محاضرتين أوليتين عن النصين والموقع الأثري في تل سكا.

(2) مهد الحضارات، 98، 2009، ص 178؛ مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، 27، 2011.

بالضواحي والأطراف في ذلك الزمن. وعرضنا للمجالات المتعددة، التي ستسمح بتقديم دراسات أخرى عن هذين النصين؛ ولا سيما اللغوي والبشري والجغرافي، وهو ما سنسعى لتأليفه ونشره لاحقاً.

1–حوض دمشق:

وقبل أن أشرع أدرس هذين النصين. لا بدَّ من تقديم صورة مصغرة لواقع حوض مدينة دمشق الجغرافي ومن ثم السياسي والحضاري عامة:

يمتد سهل غوطة دمشق من سفوح جبل قاسيون وحرمون باتجاه الشرق والجنوب على مسافة لا تزيد على عشرين كيلومتراً، حيث تبدأ البادية السورية شرقاً وسهول حوران والسويداء جنوباً، ويشكل هذا الموقع ممراً شبه إجباري للأردن وفلسطين ولبنان الأقرب. وهي اليوم عاصمة سورية وأكبر مدنها سكاناً. ومع قربها من الساحل اللبناني، إذ لا تزيد المسافة عن بيروت على ثمانين كيلومتراً، إلا أن أمطارها قليلة ولا يصلها منها سوى ثلث ما يهطل في بيروت (1000 مم سنوياً) أي 250 – 300 مم في دمشق، ومناخها معتدل مائل إلى الحرارة، ذات صيف طويل وشتاء قصير دافئ. إلا أن الطبيعة حبتها بنهر بردى الذي يتلقى مياهه من ينبوع على منتصف المسافة (40 كم) بين دمشق وبيروت، بفضل هطولات وفيرة على جبال الزبداني وتجري مياهه بسرعة نحو سهل حوض دمشق، ليجعل منها غوطة غناء، وصفها الأقدمون والعرب بأنها جنة عدن على الأرض، وهي تمتد على مساحة عشرين كيلومتراً، إلا أنها تعرضت للتصحر بسبب التوسع العمراني الحديث، واقتلاع أشجارها العتيقة [1].

(1) من أجل جغرافية دمشق وغوطتها ن: Sauvaget , J. " Esquisse d'une histoire de la ville de Damas " Révue des études islamiques 8, P. 421 – 76.

هناك بعض الإشارات الكتابية تدل على أن استثمار الغوطة بالشكل المكثف قد بدأ منذ الألف الثاني قبل الميلاد [1]، وأن المستنقعات ونباتات القصب – أبوم apum بالأكادية تغطي قسماً من غوطتها، مما جعل البناء فيها صعباً، وكذلك الدفاع والتحصين، ولذا بدأ السكن في أطرافها كما هو الحال في تل سكا.

2– دمشق دينياً وسياسياً:

من جهة أخرى فإن الروايات الإخبارية المخلوطة بأساطير دينية تضفي على تاريخ تأسيس مدينة دمشق طابعاً شعرياً وقدسياً، ويصفها بأنها أعتق مدينة في العالم، وهكذا فإن جوزيفوس Josephus في كتابه «العتيق» Antiquities (1 : 145) ، ينسب تأسيسها إلى أوز UZ (OVδηδ) بن آرام Aram بن شام / سام بن نوح نسب آدم، وأن الأخين قابيل وهابيل قد اقتتلا فيها، ويحتفظ الناس بذكرى مقامهما في أرض دمشق ومداخلها. هذا ولا نمتلك أدلة تاريخية مقنعة عن تأسيسها، أو بدء السكن فيها، إلا أن ذلك يمتد إلى عصور ما قبل التاريخ دونما شك[2]. ويأتي اكتشاف هذين النصين المسماريين في تل سكا قرب دمشق في العامين الأخيرين، لتثبيت حقيقة أن دمشق ومنطقة الغوطة، كانتا جزءاً من عالم الأموريين / العموريين وممالكهم التي سادت في مطلع الألف الثاني، وأعطت هوية سياسية وحضارية مشتركة قوامها اللغة الأكادية والكتابة المسمارية، والثقافة الدينية المشتركة، وكذلك نمط العيش والتطور. كما يمكن ربط هذين النصين بالإشارات الكتابية الأقدم في نصوص ماري التي ذكر فيها الآشوريون بلاد أبوم apum ومواقع أخرى معروفة مثل نازالا/القريتين وأدرا/ عدرا في رسائل مسمارية من قادة

(1) المقصود بها ذكر نازالا / القريتين وآدرا / عدرا في بعض النصوص الآشورية في القرن الثامن عشر ق. م وكذلك حفائر تل سكا قرب دمشق موضوع بحثنا الذي يبدو أن اسمه القديم هو أوجلسات، كما سنرى في النص.

(2) Caubin, J. Religions néolithique de Syro – Palestin, Paris, 1972, P.20.
Caubin, M. C. Outillages lithique et chronologie, a tell Aswad Damacene, Syriel Pal, 3; 295 .

عسكريين، كانوا يقومون بحملة عسكرية باتجاه لبنان للحصول على أخشاب الأرز. أمَّا اسم دمشق بالذات، فلا يظهر في النصوص إلا عندما تغدو عاصمة دولة آرامية في القرن العاشر ق.م.

وقد نشرت مضمون النص الأول وترجمته وهو عبارة عن الجزء الأعلى من رسالة لم يبق منه سوى تسعة أسطر ورد فيها اسم زمري ليم الذي وجهت إليه الرسالة، واسم كاشتيليا شو[1] وهو المرسل وتتحدث الأسطر الباقية عن أزمة عسكرية يتعرض لها الأول، فيسأل الثاني عن سلامته وسلامة الوضع. ولكننا لا نستطيع الجزم بهوية زمري ليم وكاشتيليا شو، حتى توفر شاهد آخر، يدل على مكان وجودهما وزمنه. ولا بأس هنا من نشر هذا النص الصغير ثانية، ولا سيما بعد اعتماد قراءة معدلة للاسم كاشتيليا شو بدل كنخيليشو. ونظراً إلى تأريخ النص الأول قبل الثاني بأكثر من مئة إلى مئة وخمسين عاماً ولعله قبيل سقوط ماري على يد حمورابي في عام 1759 ق. م تقريباً.

ونقدم موجزاً عن تفسيره التاريخي والجغرافي، وذلك ما يسمح بمقارنته بالنص الجديد الثاني لتل سكا، الذي ننشره هنا أول مرة، بإذن من المديرية العامة للآثار والمتاحف ومدير التنقيب في التل المذكور.

3– توصيف نص سكا الأول وقراءته: المقاييس 4.5 × 0.5:

يعدُّ هذا النص موضوع بحثنا البرهان الأول على انتشار الكتابة المسمارية، واللغة الأكادية – العمورية واستخدامهما منذ مطلع الألف الثاني ق. م على الأقل في دمشق؟ إن نصي سكا الأول والثاني من حيث مادتها الصلصالية وصناعتهما مماثلان لنصوص مملكة ماري في عهد ملكها الشهير زمري ليم. ويالأسف فإن النص الأول مهشم من أسفله، ولكن السطور العشرة الباقية أعلى الرقم تفي، من حيث المضمون، لإثبات نتائجنا الأولية وتاريخها؛ كما أن أسلوب كتابة الإشارات المسمارية، هو الآخر، مطابق لنمط

(1) قرأت سابقاً بدله كنخيليشو وصححت القراءة بعد ملاحظات المختصين ولا سيَّما الأستاذ جان ماري دوران، إلى اسم كاشتيلياشو وهو اسم حوري معروف.

ماري وأشنونا، وهو الخط البابلي – الأشنوني القديم الذي كان منتشراً في جنوب العراق ووسط الفرات في سورية ، وغربها إجمالاً. وها نحن نعثر على مثال مقنع في الجنوب أي في سكا قرب دمشق.. أمَّا النص الثاني الذي عثر عليه في ردميات جانبية من التل، فسنرى مدى اختلافه عن الأول شكلاً ومضموناً في الصفحات الآتية:

– قراءة النص بالحروف اللاتينية :

أمَّا قراءة النص المسماري بالحروف اللاتينية وترجمتها إلى العربية فهي كما يأتي :

a-na a-hi-ia zi-im-ri-li-im
qi- bi-ma
um-ma/ ka-aš -ti-le-e-šu/ a-hu-ka-a-ma/
$^{(d)}$utu/ ù/ $^{(d)}$da- gan da-ri-iš u_4-mi
5 -a-hi li-ba -al-li-tù
ma-har-ri-ia/ šu-ul-mu-um
ma–har a-hi-ia lu-ù šu-ul-mu-um/
eš-me-é-ma/lú –kúr a-na ma-at a-hi-ia im-qú-ut
a-hi šu-lum-šu li-iš-pu-ra-am
[e]ù. Šu. gi sa-ma-[am] ta-ak-ma-tim /sunu/ 'ki??
[….]-um??-a-ha-a[m
$_x$šá $_x$/ / / [$_x$/i-n]a? lìb-b [i]
sa-bu-um[
a-na a-hi-ia [……..]

الترجمة إلى العربية :

إلى أخي زمري ليم
قل :
هكذا قال كاشتيلياشو، أخوك
إله الشمس، ودجن ولمدار الأيام أخي
ليعش.
5– من جهتي سليم
من جهة أخي ليسلم

سمعت أن الأعداء هاجموا بلاد أخي
أخي أخباره ليرسل ...الشيوخ.....
ربما.....جاؤوا.....أمام....
قواتنا
إلى أخي [.....]
.....

نقد النص:

1–نظام الكتابة واللغة ونسبتها:

أ– الكتابة: إن الخط ذو نمط أشنوني منقوش بالإشارات المسمارية البابلية/ القديمة على الطين الطري، ثم المجفف شوياً غالباً، نظراً إلى قساوته ومظهره الفخاري. وقد استخدم هذا الخط في ماري وسورية عامة. وأفضل الأمثلة عليه نجدها في محفوظات ماري زمن زمري ليم، وأمثلة أخرى في آلالاخ مصيف ملوك حلب، قرب أنطاكية اليوم. وكذلك في أوجاريت، وإيمار وتل العمارنة في مصر الخ... ويختلف هذا الخط عن الآشوري القديم شكلاً ولهجة من حيث اللغة. ومن الواضح أن اللغة هي الأكادية التي تعدُّ الجدة الأقدم للغات الوطن العربي وأحدثها العربية، بفصيحها وعاميتها.

ب– اللغة: إن لغة النص هي الأكادية البابلية – المارية القديمة لتمييزها عن الآشورية الشمالية الشرقية، وقد كتبت بالإشارات الصوتية المقطعية، وبعض الإشارات الصوتية التصويرية السومرية. ونستطيع ملاحظة هذا اللفظ للإشارات من خلال قراءة كتابته بالحروف اللاتينية كما أوردنا أعلاه.

ج– الأسلوب اللغوي والأدبي وقواعده : يعدُّ أسلوباً عموريا – أموريا سورياً غربياً وفراتياً أوسطياً ونمتلك آلاف الرسائل من هذا العصر– العموري، التي تمثل ممالكه ومدنه الشهيرة مثل بابل وآشور وماري وحلب وحاصور في فلسطين، وتعدُّ محفوظات ماري ورسائل بابل المتفرقة أفضل الأمثلة عليه، ويتجلى بأسلوب لغوي بسيط، وتكرار للعبارات التقليدية. وأهم من هذا، أن مطالع الرسائل جميعها تبدأ بالعبارة التقليدية التي نلاحظها وهي : إلى أخي.. فلان... قل: أن قال فلان، ثم يبدأ المرسل بالدعاء للمرسل إليه أن تحفظه الآلهة وأن يعيش مدى الدهر بهناء، ثم ينتقل إلى موضوع الرسالة وهو هنا سياسي وعسكري واضح، ثم تقفل الرسالة بتكرار طلب الأخبار والتمنيات بالصحة والسعادة !

ونستطيع أن نحدد جزءاً من هوية المرسل والمرسل إليه ومكانتهما من خلال الاسم، والمرتبة والوظيفة، وإن لم تُذكر ، فإن عبارات التخاطب وكلماتها، تدل على هذه المكانة، فمن هم في مرتبة واحدة (ملك لملك) وعمر واحد وهذا مهم جداً، فإنهم يتخاطبون بصفة الأخ...أخي، أخوك، كما نلاحظ في رسالة سكا، وعند تماثل المرتبة ووجود فارق السن، فالخطاب يكون بأبي للأكبر وابني للأصغر! وهي ذات صفات وعبارات السلوك والأدب الاجتماعي المتدرج في مجتمعاتنا العربية عامة[1].

القواعد:

تتبع القواعد نظام ترتيب الجملة الأكادية التقليدي، إذ تبدأ الجملة بحروف الجر الدالة على المكان أو الزمان مثل أ–نا بمعنى إلى وأُم– ما بمعنى هكذا أو إ–نا بمعنى في. أمَّا الضمائر وصيغة الفاعل والمفعول والاسم، بصورة عامة، فهي متطابقة، وتختلف الأكادية عن العربية بفقرها بأدوات الوصل والإشارة.

د– النقد التاريخي ومضمون النص: إن الاسم الأكثر دلالة على أهمية الرسالة التاريخية هي المرسل إليه زمري ليم الذي لا يحمل لقباً هنا، ولكن لغة الخطاب المتوازنة، والمحتوى النصي يدلان على أن المرسل إليه والمرسل المدعو كاشتيلياشو من مرتبة ملكية وأصول حثية أو حورية، فاسم العلم هذا معروف في نصوص ماري، وإن لم يسبق اسمهما الإشارة والصفة.

إن العثور على هذا النص في سكا قرب دمشق يخضع لعدة احتمالات:

أن يكون المرسل إليه هو فعلاً ملك ماري زمري ليم، كما سنرى وأن المرسل المدعو كاشتيلياشو مقيم في تل سكا أو في مكان آخر قريب، وهو احتمال يدل على وجود مبكر لعناصر بشرية حثية أوحورية.

يسأل المرسل زمري ليم عن سماعه أنباء هجوم العدو على بلاده، وهو أمر واقع تاريخياً، ونعلم أن زمري ليم في حالة حرب شبه دائمة مع أبناء جلدته، إن لم يكن

(1) حول نظام الكتابة المسماري الآكادي ورموزه ن : J. M Durand, LAPOI, P.19.

عشيرته، ومع الآشوريين المتمركزين على دجلة أعلى شمال شرق سورية، في عاصمتهم الأقدم شباط أنليل، ونعلم أن تدمير ماري وملكها زمري ليم ونهايتهم سيكون على يد حمورابي البابلي والحليف السابق. كما أن المرسل، يذكر في أسفل الرسالة المهشمة حيث لم يبقَ سوى كلمة : «وقوات أو جنود» وقد يكون هذا جزءاً من جملة تفيد بأن كاشتيلياشو سيرسل مساعدة عسكرية إلى زمري ليم.

تفقد الرسالة السطور الأخيرة التي قد تكون بحدود الأربعة، وبذلك نفقد إمكانية معرفة العمل الذي سيقوم به صاحب الرسالة، ونفتقد إلى ذكر أي اسم جغرافي، وهذا مما كان يساعدنا على التأكد من الموقع الجغرافي للمرسل والمرسل إليه.

إن أصول الاسمين الملكيين زمري ليم وكاشتيلياشو مختلفة. ذلك أن زمري ليم اسم عموري أكادي مركب، الأول يفيد معنى المحب ثم المنطرب (زمّر) بحب الإله ليم، وهو إله صغير لعشيرة عمورية تحمل هذا الاسم. أمَّا كاشتيلياشو فهو من أصل لغوي حوري كاشي، عرفنا مثله لأمير أو عاهل شمال الجزيرة السورية، وذلك في العصر الكاشي!

إن غياب أي اسم جغرافي هنا، يُضيِّق من الاحتمالات والتوقعات، ونحن نعلم أن التفسير اللغوي للأسماء وحده لا يدل بصورة قاطعة على حقيقة تاريخية.

إن خلاصة نقد النص الظاهري، تتمثل :

أولاً: في معاصرة النص ومكانه الجغرافي أي سكا لعصر ماري وملكها زمري ليم.

ثانياً: أصبحنا متأكدين من وجود سلطة سياسية في أطراف دمشق منذ القرن الثامن عشر ق. م، وهي من أصول محلية قد تكون كنعانية وتستخدم اللغة والكتابة والثقافة المحلية السائدة، ولا نجد أي تعبير أو كلمة غربية يمكن ربطها بلغة أقوام مجاورة في الأناضول أو إيران. من جهة أخرى قد لا يعني وجود صاحب النص في منطقة دمشق بصورة مؤكدة! عند ذلك يجب افتراض أن النص سقط أو حُفظ في سكا لأسباب عدة لا يمكن تبنيها وإنما افتراضها.

ثالثاً: أصبحت دمشق في عداد المناطق التي استخدمت الكتابة المسمارية منذ مطلع الألف الثاني ق. م، وهذا يعني أنها كانت مملكة عمورية الثقافة واللغة، انسجاماً مع سيادة هذا العنصر البشري منذ نهاية الألف الثالث ق. م حتى نهاية الألف الثاني وظهور الموجة الآرامية الجديدة، ثم العربية، وهكذا فإن الهوية اللغوية والثقافة لدمشق مرتبطة بالفرات السوري العراقي والساحل اللبناني والفلسطيني.

هذا ما يمكن قوله عن النص، لغوياً وتاريخياً، ولا بدَّ من إعادة تقييم ما يتعلق بالمعلومات التاريخية والإشارات النصية والأثرية، التي عرفناها قبل اكتشاف سكا ونصها، تلك المعلومات التي ترتبط بتاريخ دمشق وغوطتها، والتي دعيت في النصوص المسمارية والهيروغليفية بـ أبوم Apu (um) و UPI، ومن ثم لا يظهر اسم دمشق الحالي إلا في وقت متأخر من القرن الرابع عشر ق. م، وهذا ما يتطلب منا إعادة استعراض ذلك آخذين بالحسبان الاكتشاف الجديد[1].

رابعاً: إن اقتراح الأستاذ جان ماري دوران J. M. Durand الآنف الذكر قراءة الاسم الثاني بـ: كَ – اش – تِ – لِ – يـ – شُ المطابق لاسم حاكم في ترقا / تل العشارة قرب دير الزور، وهو من أصول حورية، يستند برأيه إلى عدم وجود معنى لغوي للمقطعين الأخيرين لِ – شُ بالأكادية أو أي لغة من العائلة هذه كالآرامية أو العربية .

وأن اسم كاشتيلياشو، اسم حوري معروف... قد يكون هو بالذات، صاحب الرسالة.

4– تاريخ دمشق والمعطيات الجديدة :

يمكن التأكيد أن دمشق وغوطتها كانت مأهولة بالقرى العمورية منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، يشهد على ذلك مجموعة من المعلومات الأثرية من حول المدينة القديمة، إذ لا يمكن التنقيب فيها، بسبب السكن وتكاليفه الباهظة، وهو ما ينطبق على حلب أيضاً. ولذلك فستظل أجزاءٌ مهمة من تاريخهما محفوظة في باطنهما.

(1) Albright , W. F. , the Vocalisation Of the Egyptian Sylabic : Orthograph. New Haven, AOS = Amarican Oriental – Socity 1934. P. lo. ; the Land Of Damascus between 1850 and 1750 B. C. BASR 836 30 – 36.

إن مراجعة تاريخ دمشق يهدف إلى وضع المعلومات الإضافية الجديدة التي حصلنا عليها مؤخراً من تنقيبات تل سكا قرب دمشق في إطار ما سبق وكتب عنها، وما كتبته بالذات في أكثر من مناسبة كان آخرها في إطار ندوة جامعة دمشق بعنوان: **تاريخ دمشق**[1].

تفترض أهمية المعلومات المكتشفة مثل هذه المراجعة التي تمتد في الزمن عبر حقبه، القديمة أي منذ مطالع الألف الثالث واختراع الكتابة المسمارية حتى نهاية العصور السورية العراقية القديمة – الرافدية إثر هيمنة الفرس في القرن السادس واليونان في القرن الرابع ق. م ثم الرومان والبيزنطيين، إذ دام هذا الاحتلال الأجنبي المتتابع قرابة ألف عام، وانتهى مع الفتوح العربية الإسلامية، وعادت السلطة المحلية إلى عهدها السابق.

أ – نذكر أن دمشق وريفها لم يقدّما كثيراً من المعلومات عن أوضاعه، في الألف الثالث مع أن هناك تنقيبات حالية تشير إلى وجود سكن وحياة زراعية حولها، وعلينا الانتظار كثيراً للحصول على نتائج مهمة.

يمكن الإشارة هنا إلى أن سومري العراق قد أقاموا علاقات مهمة مع سورية وصلت إلى الساحل السوري اللبناني، فقد ورد ذكر اسم جُبلا / جبيل/ بيبلوس/ الاسم الإغريقي. وبذلك تكون هذه المدينة بالاسم ذاته العموري، أقدم مكان جغرافي لبناني ساحلي قريب من دمشق وهو ما يشير إلى ضرورة عبور الرياح الحضارية الفراتية من دمشق إلى جبلا اللبنانية[2]. كما أن لبنان ورد بالاسم ذاته في رسالة شمشي أدد في القرن 18 ق.م. وبذلك فإن هوية لبنان الحضارية أقدم من الفينيقية بألف سنة على الأقل!

ب– أمَّا الألف الثاني : فنلاحظ ازدياداً في المعلومات، ولكنها تبدأ بالغوطة ولا يظهر اسم دمشق حتى القرن الخامس عشر ق.م في نصوص مصرية ثم سورية[3]، في

(1) ندوة جامعة دمشق بعنوان: دمشق في التاريخ، مطبوعات جامعة دمشق 2006، ص 1 – 89.
Buccellati , G., Cities and Nations of Ancienl – Syria. Rome, 1967, P. 42.

(2) عبد الله فيصل، تاريخ بلاد الشام القديم، منشورات جامعة دمشق، 2003 ص 7 – 15.

(3) من أجل اسم دمشق والأسماء الأخرى، أنظر أعلاه ندوة دمشق في التاريخ وكذلك:
Wayne T. Pitard, cf., r. 7.

حين كانت مدن شمال سورية مثل إبلا وحلب وآلالاخ وأوجاريت تؤدي دوراً دولياً في الحضارة والتجارة العالمية في الألفين الثالث والثاني.

جـ– قيمة النص الجديد : إن امتلاكنا لنص مكتشف مجدداً في منطقة دمشق يقدم لنا صورة واقعية عن الحياة السياسية لسكان الغوطة المحيطة بالمدينة التي تحتفظ بأسرارها كما ذكرنا أعلاه، ذلك أن المرسل إليه يحمل اسم زمري ليم، الذي أتى في السطر الأول كما هي عادة أدب كتابة الرسائل المسمارية.

أمَّا المرسل وقد أصاب التهشيم بعض الإشارات إلا أن قراءته كاشتيلياشو كما ورد أعلاه شبه مؤكدة، فهو يبدأ بالدعاء للإلهين شمش ودجن أن يحفظا أخيه زمري ليم مدى الأيام ويخبره عن نفسه أنه بسلام، ويتمنى السلامة له، ثم يسأل عن أنباء سمعها: أن أعداء بلاده قد هجموا عليه....

يؤكد هذا النص بصورة قاطعة وجود ملك يحمل هذا الاسم وأن له صلة سياسية وثيقة بأخيه، وأن دمشق وغوطتها على اتصال مؤكد بوادي الفرات وشمال سورية وممالك ذلك العصر وعلى رأسها ماري، وإذا ما عدنا إلى بعض نصوص ماري المتعلقة بمنطقة دمشق، فإننا نستطيع إعادة تشكيل لوحة جديدة عنها، تؤكد معاصرتها للمدن العمورية السورية آنذاك، مع أن اسمها لم يظهر بعد في نصوص ماري أو شمال سورية عامة ولكنها لم تكن ذات أهمية سياسية كمدن مثل حلب وقطنا كما ذكرنا أعلاه.

5– اللوحة الجديدة لتاريخ دمشق وغوطتها في العصر العموري – ماري :

آ– نعلم أن الرسائل المتبادلة بين ملوك ماري ومدن سورية الشمالية والوسطى قد ذكرت أسماءً جغرافية يمكن موضعتها على خريطة تمتد من شمال سورية حتى مصر بما فيها لبنان وفلسطين والأردن، فقد ذكر فيها اسم مصر Misir[1] كما هو ملفوظ

(1) انظر: LAPO, Inscriptions Rayales Sumeriennes et akkadiennes Paris, 1971, P. 323, misráya المصري
وانظر: من أجل بقية الأسماء: ARMXVI/1; RGTC, band 3

بالعربية اليوم وذكرت مدينة حاصور Hasur في فلسطين وعدرا / أدارو Adaru ونازالا Nazala (قريتين) والمدينتان الأخيرتان قرب دمشق، أمَّا التعبير الجغرافي لبنان – ليبانو Liban فقد ذكر أول مرة في كتابات شمشي أدد، وكذلك مدينة جبيل Gubla؛ وبذلك فإن لبنان أقدم من فينيقيا – التعبير الإغريقي. وهكذا نستطيع القول: إنَّ وثائق ماري. تعرفنا بالهوية الجغرافية، والسكانية لجنوب سورية حتى مصر منذ هذا الوقت المبكر أي منذ مطلع الألف الثاني ق. م، وتعدُّ هذه الوثائق المصادر الوحيدة التي تؤكد الهوية الأمورية/ العمورية ولغتها وحضارتها الموروثة عن أسلافهم السومريين، والأكاديين وتبنيهم السريع لها كما هي سرعة العرب في تبني حضارة السريان والآراميين والفراعنة عند فتحهم الشام ومصر...وكتبوا بالكتابة المسمارية العالمية ذاتها آنذاك، وصار واضحاً أن مهد حضارة العموريين الجديدة هي سورية، فهي وريثة سومر وأكاد[1].

ب– إن رسائل ماري الأكثر أهمية تغطي زمناً قدره عشرين سنة من حكم زمري ليم وتمثل عهود ملوك مشهورين، وهي ست سنوات من حكم يسمخ أدو Yasmah- Addu 1796 – 1776 في ماري، وأربع عشرة سنة من حكم ياريم ليم في حلب 1775– 1761. وقد ورد في نصوص ماري أسماء مدن أخرى وملوك لا نعرف عنهم شيئاً قبل القرن الرابع عشر ق. م، وهكذا فإننا اليوم ولاسيَّما بعد اكتشافنا للنص المسماري في سكا نؤكد قدرتنا تحديد الهوية السكانية والجغرافية وكتابة تاريخ جديد لدمشق وغوطتها بدءاً من القرن الثامن عشر ق.م، إن لم يكن أبعد بقليل من هذا التاريخ.

جـ– من جهة أخرى تعرض نصوص ماري البنية العامة لمدينة سورية وتكشف عن هوية سكانها وجغرافيتها، التي ظلت دونما تبدل حتى ظهور وثائق آلالاخ قرب انطاكية في القرن السادس عشر، ثم وثائق تل العمارنة في مصر التي تغطي زمناً يقع بين القرن

(1) راجع كتابي ، تاريخ بلاد الشام القديم، جامعة دمشق 2003، ص 7، وانظر الخارطة أسفل.

الرابع والثالث عشر قبل الميلاد. فجاء مضمون رسائلها مطابقاً ومؤكداً لتلك الهوية العمورية.

إذاً نلاحظ أن أسماء الأماكن والمدن لم تتبدل وبقيت على حالها، مما يدل على استقرار سكاني وسياسي. ولا نشعر بوجود تبدلات أو آثار تخريب وثورات على المستوى الأثري أو الكتابي، بين عصر ماري وعصر تل العمارنة، وهكذا يبدو المشهد السياسي، والسكاني هادئاً ومستقراً حتى ظهور الآراميين في نهاية الألف الثاني ق.م.

د– سُمي جنوب سورية– الشام، بما فيها لبنان والأردن وفلسطين وشمال الحجاز بلاد أمورو Mat Ammur في وثائق ماري وآلالاخ.

من جهة أخرى نمتلك لقبين آخرين يدلان على هذا الاسم القومي: الأول يدل على سكان الضفة اليسرى أو الشمالية من وادي نهر الفرات، أي بني – شمال Mar Šima'l وجميع البدو وأنصاف البدو الذين يتدفقون على العراق من جهة الغرب أي Ammuru، أمَّا اللقب الثاني فيدل على الأراضي والسكان الواقعة شرقاً وشمالاً حتى سواحل المتوسط أي بني يمين Mar – Yamina.

هـ– يجب التذكير بأن الجذر الأكادي – العربي مُرّ Mrr يدل على ملح البحر أو ماء البحر المالح، ونعلم أن نصوص أوجاريت Ugarit ، تذكر: مملكة أمورو Šaratum Ammurum على الساحل جنوباً، ويبدو من خلال المعطيات التاريخية أن عاصمة تلك المملكة هي جبلا[1] Gubla بيبلوس / Byblos اللبنانية المعاصرة أي إنَّ أقدم هوية للبنانيين هي عمورية. ونرى مثل هؤلاء الأموريين في قطنا / تل المشرفة قرب حمص، وفي حاصور شمال فلسطين، منذ بداية الألف الثاني ق.م، ونجدهم يُذكرون ويسكنون في تدمر التي تعرف أول مرة، وما تزال تحمل الاسم ذاته، قبل أن تعرف باسمها اليوناني – الروماني أي النخلة "Palmyra"، وامتد نفوذ هؤلاء الأموريين إلى منطقة دمشق، وهو ما تأكد الآن بموجب النتائج الأثرية لحفريات سكا ونصها المسماري

(1) من أجل جبلا والأسماء الجغرافية: gu – ub – la, Dossin Syria, 109. 111. RGTC, 66

الأول والثاني المنشور هنا أول مرة. وشكلت فلسطين بكاملها، جبهة جنوبية لدمشق؛ ومع نأي هذه الجبهة عن ماري الفراتية إلا أنها ذكرت من خلال علاقات تجارية مع حاصور كما أسلفنا. هذه المدينة الفلسطينية التي حافظت على اسمها حتى اليوم، قدمت حفائرها الأثرية بعض الشواهد المادية والكتابية المعاصرة لممالك شمال سورية الأمورية، ولاسيَّما ماري. وهناك ما يدل على قيام علاقات تجارية بين هذه الأخيرة وحلب وحاصور الفلسطينية ومصر الفرعونية. وممّا يذكر أن تجارة حلب وآلالاخ مع مصر تمر عبر الساحل وليس عبر المشرفة حمص الداخل، بسبب الخصومات السياسية الدائمة بين المدينتين وملوكها الأموريين.

إننا نجد في قصر ماري مواد التجارة من منتجات الرفاهية الفنية المصنعة في جُبلا اللبنانية مثل المزهريات المذهبة المسماة بالأكادية چالو – Gallu والأقمشة والأحجار الكريمة المصنعة. ومع قلة الشواهد إلا أنها كافية للدلالة على قيام هذه العلاقات التجارية المبكرة، وذلك النشاط التجاري الذي وصل إلى مصر عبر لبنان وفلسطين. ونلاحظ أن دمشق تتصل بهذا الطريق وتلتقي معه في حاصور القريبة منها التي تشكل نقطة عبور وانطلاق نحو مصر كما هي مدينة سوزا العيلامية كنقطة انطلاق للتجارة مع إيران وما بعدها بالنسبة إلى بابل.

ومن جهة أخرى، لم يكن طريق البضائع المصرية يمر عبر دمشق وحلب، بل إن أكبر جزء منها يسلك البحر إلى شمال سورية، ولدينا بعض الأمثلة المقنعة في آلالاخ وحلب وأوجاريت وقبرص وكريت، فقد ذكرت النصوص الأكادية اسم قبرص تحت اسم آلاشيا Alašia وكرباتوم Karpatum بالنسبة إلى كريت الاغريقية[1].

و – إننا نستطيع تأكيد اتصال مصر المبكر بشمال سورية بحرياً بدءاً من شواطئ الدلتا المصرية باتجاه كريت، وقبرص ثم المينا– آلالاخ / تل عطشانة أوچاريت / رأس الشمرة ورأس ابن هانئ– إذ تنتقل البضائع إلى حلب عن طريق آلالاخ، ثم إلى إيمار

(1) انظر السابق RGTC3 .

عبر وادي الفرات ومن ثم نهرياً إلى ماري. وهكذا نلاحظ أن جبلا / بيبلوس ليست بالضرورة المرفأ الطبيعي الوحيد لمدينة دمشق، كما يجب أن تكون بيروت اليوم!.

ز– تدل وثائق ماري التي تذكر لنا أسماء مدن أو قرى في الغوطة في وقت مبكر وقبل ظهور دمشق بالذات على أن محيطها بما فيه بحيرة مصب بردى، قد عمرت وسكنت قبل المركز أي دمشق المعاصرة.

ح– إن مراكز عمرانية مثل عدرا Adaru ورخيصوم Rahisum ويرخو/ أريحا Yarhu التي تعني القمر بالأكادية وأسماء قبائل أو بطوناً مثل كنخو Kenhu التي تدل على كنعان، وكذلك بدو يرخو Yarhu قد ورد ذكرهم في رسائل قادة آشور أو شور أي / سور/ سورية!، ومركزهم الإمبراطوري قرب القامشلي في مدينة شباط انليل، فقد وصل هؤلاء الآشوريون أو السوريون القدامى بحملاتهم العسكرية والتجارية إلى لبنان الذي يذكر أول مرة في التاريخ كما أسلفنا، وعسكروا في سهل البقاع بعد عبورهم غوطة دمشق، ولنذكر أن شمشي أدد الأول يعدُّ أول ملك سوري/ آشوري يتحدث في حوليته عن نفوذه في لبنان، وينقل لنا اسمه التاريخي كما هو حتى اليوم في حولياته الملكية. ونستطيع ذكر رسالة[1] كتبها أحد القادة السوريين/ الآشوريين إلى ملكه شمشي أدد، وقد وصلت قواته إلى قلب غوطة دمشق إذ يقول:

" قل لمولاي، أن قال سمسي دخوم :

"كما ذكرت سابقاً لمولاي، فقد عسكرنا في منطقة أبوم، قبالة مدينة رخيصوم مع أربعة آلاف رجل. وكان معهم حلفاءهم من مدينة مينيتايوم Minitaym وهدفنا هو حصار مدينة عدرا Adaru في بلاد رخيصوم المتحالفة مع اشخي – أدو ملك قطنا.

وقد تجمعت قوات المدن كلها ، وقواتنا أمام المدينة حيث نتهيأ للهجوم. ثم أغرنا باتجاههم. فعندما رآنا العدو غادر المدينة المحاصرة، وقمت بالمناورة مع قوات أبوم –

(1) Dossin , G, Syria 50, 278, 7.9.10.

وهذا يعني أن أبوم مدينة وليست منطقة وحسب– الذين انضموا إلينا ودخلوا إلى قراهم، وعندما لمحنا العدو ونحن نناور انطوى على نفسه وسار باتجاه عدرا..... ولاحقتهم قوات مولانا وكانت بين ظهرانيهم، ولم تسل دماء كثيرة بيننا، إلا أن ضابطاً توفي وهو على رأس قواته فليعلم مولاي هذا كلّه ".

وهكذا نلاحظ أن الرسالة السابقة تذكر مدينة عدرا أول مرة، منذ أواسط القرن الثامن عشر ق. م وهي واقعة على بعد ثلاثين كيلو متراً شمال شرق دمشق على طريق تدمر وما تزال تحمل الاسم ذاته حتى اليوم.

أمَّا رخيصوم فهي غالباً واقعة على طريق قادش / حمص دمشق، أمَّا تدمر ونازالا (قريتين) فهما دليل عبور الآشوريين من تدمر إلى دمشق مباشرة، وبذلك فإن طريق دمشق الفرات معروفة منذ ذلك الوقت الباكر.

ويمكن الإفادة من النص السابق ، والاستنتاج أن غوطة دمشق مأهولة، وملأى بالقرى والمدن المزدهرة، وأن دمشق المركز لم تكن موجودة في ذلك الزمن، بسبب مستنقعات بردى التي كانت تمتد حتى عدرا على سفوح الجبل، كما هو وارد في الرسالة السابقة، وأن المدينة المركز هي أبوم، وكذلك اسم البلاد.

6– توصيف رقيم سكا (2) وقراءته:

1– مقاييس الرقيم الخارجية – سكا 2 عام 2010 هي نحو 6 × 12 سم ومؤلف من النص وغلافه.

2– إن حجم الإشارات ومساحة الخطوط والأسطر، متطابق مع نظيرها في النص الأول وهو ذاته في ماري والعصر البابلي القديم عامة، والمتأخر بالنسبة إلى هذا النص بالذات كما رأينا في التحليل التاريخي والتأريخ الزمني لاحقاً.

3– مضمون النص وترجمته.

أ– كما هو متعارف عليه في النصوص المدونة بالمسمارية واللغة الأكادية الحقوقية والقضائية فإنها تدون على لوح طيني، إذ يبدأ الكاتب بعرض الحالة الحقوقية أو القضائية مفصلاً الحيثيات جميعها من مخالفة وحق وعقوبة أو ضمانات، إذ تُدوّن بدقة،

وكذلك أسماء العلم والأماكن، العلم ووظائفها وألقابها، وأسماء الأماكن ومراتبها، مثل: مدينة أو قصر أو بيت أو مكان متواضع.

ب– ثم يبدأ الكاتب العدلي بتدوين النص القضائي وحيثياته وأحكامه، ثم يسرد أسماء الشهود إذ إنَّ العدد غير محدد، وهو هنا بحدود عشرين شاهداً كما هي الحال في نصنا الدمشقي هذا، ومن ثمَّ فإن القاعدة العرفية أن يشهد كل من هو في المكان أو أن يكون ذا صلة بالقضية أو الموضوع. ومن الضروري وجود ممثل للجهاز الإداري الحاكم سواء أكان والياً أم مندوباً، وأحياناً بحضور أعلى سلطة أي الملك، ولاسيمَّا إذا تعلق الأمر بقضية ذات صلة بالقصر، ونجد في آخر النص اسم علم ولقب ملك... ولكنه غير معروف حتى الآن..... ثم يكرر النص على الغلاف / مع اختلاف في عدد الشهود، واختلاف أسمائهم.

جـ– كتب النص بالخط المسماري المعروف في ذلك العصر في المشرق العربي وجواره، وخاصة في العراق وسورية. ويمكن مقارنته من حيث الشكل برقم محفوظات ماري التي تؤرخ في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، المعروف بعهد ملكها زمري ليم الذي يقدر حكمه من 1782 إلى 1759 ق. م، وكذلك نصوص آلالاخ وإيمار وتل العمارنة التي تغطي قرون البرونز الوسيط والحديث.

د– النص كما يُقرأ بالأبجدية اللاتينية وترجمته للعربية:

رقيم سكا 2.

[m]Li-iq-ma-ad-d[u	لِ – إق – ما – دو
lú na-sí-**ku…x x x**	السيد لقمادو. صاحب / شيخ
uru ú–gu–ul–sà–at	في مدينة أوجلسات
i–na pa–ni–i li–iq–ti-[i]m?	من دفع الضريبة (ليقتم)
… ih–li–iq–ma	قد هرب
pu–hi–i-šu li–iq–ta$_5$	بدل الضريبة
[m]ì-lí-uš-ta–lu	السيد إيلي اوشتالو
i–di–in	قد أدى
é li–iq–ma–ad–du	بيت لقمادو
ši-bu-tu a-na i-lí-u[š]-/ta-lu	الشيوخ إلى إيلي أوشتالو
i-di–nu–šu	أعطوه
é li–iq–ma–a–du	بيت لقمادو

	^{m}ì- lí-uš-ta–lu	السيد إيلي أوشتالو
	i–ba–qa–ar–ma	استرد
15	1 5/6 ma-na kù. UD (ni-[IH]ba-ah	1 6/5 وزنة فضة = مانا= نحو 480غ
Tr	Zi- im–ri-e-r[a- ah]/ di-[ku]$_5$	زمري إيراخ
	1/2 gún kù – UD	2/1 وزنة فضة
	^{m}a-hi-ma–lik aga3	السيد أخي ملك
20	R. igi-ab–du–ba–ah–li	أمام عبدو/أبدو بخلي
	igi iš–me-ú	أمام إشميو
	igi na–ap–si–a–du e-pu?	أمام نبسي أدو
	igi mu-ti–ia–an	أمام موتيان
	igi ia-ni-í-lu	أمام إيانيلو
25	igi ha–na–a–du	أمام خَنادو
	igi eh–li–ip-šar–ri	أمام اخليبشاري
	igi ki–za–a–za asgab	أمام كزازا، أسچاب؟
	igi ma-ah–ni-[ti-AN]	أمام ماأخنيتان
	igi ma-ah–ni–ti–AN	أمام ماأخنيتان
30	dumu i-lu–mi–i	بن إيلومي
	igi mu–ra–a–du	أمام مرادو
	igi zi-im-ri-li–im	أمام زمري ليم
	igi dumu ia–ah–ni-e?-da?	أمام إياخنيدا
	igi ia–ah–tu-ka-du	أمام إياختُكادو
35	dumu il–ba–h–[li] [muhaldim]	ابن الباخلي؟
	Igi a-ba–a-[du]	أمام أباد[و]
Tr	igi I–din-?[	أمام أديني
	igi i-lí–x–x-?	أمام ني x x
	dub?–s[ar?	دوب ؟ سار؟
40	iti ib–ba–n[a	شهر إيبانا
Cô	mu am–mi–ku-lu [uh] lugal–e/li-iq-ta$_5$	سنة أميكولو ملك
té		
	[é] a- bi-sa–m[i-r]I il-qú-tu	السيد " أبي سمير"؟

	Enveloppe:	الغلاف
	[…i] q-ma-a[d-du/lú n]a- sí-ku$_{13}$ uru ⌜ú⌝[	[لقمادو... شيخ مدينة!
	p]a-ni–i li–iq- ⌜ti⌝	أمام لق .....
45	i]h-li–iq–ma	هرب
	hi^{x}–šu^{m} i-lí-uš–ta-lu	X السيد إيلي xxx
	lí]–iq–tam ⌜i⌝-⌜d⌝ i-in	دفع الضريبة
	é]li–iq-ma–ad-du	لقمادو
	]lú na-sí-ku$_{13}$	الشيخ صاحب
50	u]ru ú-gu-ul–śa-at	مدينة أو جلسات
	š]i-bu-tu uru bàd ⌜ar⌝-kab-a-du	شيوخ مدينة أركب أدو!
	é li–iq–ma–a–du	بيت لقمادو
	⌜a- na⌝ ⌜ì- lì⌝ [lu	إلى
	Zi-[im-r]i-⌜e⌝-[ra–ah]	زامري إيرخ؟
55	1/2 gín kú UD m-[ba-ah	
	^{m}a-hi-ma-lik aga$_3$	السيد أخي مالك ....
	-igi ab-du-ba-ah-li	أمام أعبدو بخلي
	-ig]i iš-me–ú	أمام اشميو
	[ig]i ma-ap-si-a-du e..pa-a (NP-déplacé!)	أمام نفسي أدو
	⌜ig⌝i mu!-ti-ia–an	أمام موتيام
60	ig]i ia–ni–i-lu šitim	أمام إيانيلو شِتيم
	(g)i eh-li-ip-šar-ri	أخلبشاري
	iti ib-ba-na ù lú meš ši-bu-tu	أمام إبانا والمشايخ
	[mu] am-mi-qu-lu-uh-lug[al	سنة عمي كولوخ ملك

نقد تحليلي:

هذا النص القضائي هو الأول من نوعه في تاريخ دمشق القديم، والثاني من حيث عدد النصوص التي عُثر عليها حتى الآن، ونعني بذلك الجزء الأعلى من رقيم سكا 1 وهو عبارة عن رسالة سياسية وعسكرية موجهة إلى شخصية ملكية غالباً يدعى زمري ليم، والمرسل هو شخصية من المستوى ذاته تدعى كاشتيلياشو.

وهكذا فإن النص قد أدخل دمشق في تاريخ الدراسات المسمارية نظراً إلى أنَّه الوثيقة الأولى التي عثر عليها قرب دمشق ونفد الأولى في جنوب سورية عامة.

أمَّا النص الثاني، موضوع بحثنا اليوم فهو قضائي حقوقي كما ذكرنا، ولكنه يؤكد من حيث المبدأ وجود سلطة قضائية وسياسية عند تاريخ كتابته في موقع سكا الذي لا يبعد عن دمشق سوى عشرين كيلومتراً.... ولعل هذا يعني أن موقع دمشق بالذات، لابدَّ أنه كان ذا مكانة أهم وأرفع، نظراً إلى تطور المدينة في العصور اللاحقة إلى عاصمة إمبراطورية آرامية في مطالع الألف الأول قبل الميلاد.

إن هاتين الوثيقتين المسماريتين الأوليتين، تدلان بشكل قاطع على وجود سلطة سياسية وقضائية في تل سكا قرب دمشق. وهما من حيث الشكل والمضمون تؤرخان في القرنين السابع والسادس عشر قبل الميلاد، وتحديداً بعد نهاية مملكة ماري على يد حمورابي في بدايات التدخل الحثي في سورية بدءاً من 1595 ق.م، ويمكن القول: إن نص الرسالة الأولى هو الأقدم ويؤرخ عقب سقوط ماري، وربما في أثناء قيامها نظراً إلى ما تحمله من دلالات سياسية وعسكرية، كما سبق وأشرنا إلى ذلك في دراستنا للرسالة في دورية "مهد الحضارات" النص العربي، ومؤتمر الدراسات الآشورية في باريس2010، كما نشر بالتفصيل في مجلة كلية الآداب بجامعة دمشق (مج 27–2011).

وقبل أن نحلل مضمون النص لغوياً وتاريخياً، لا بدَّ من فهم بعض المعطيات الأثرية التي تمخض عنها تنقيب البعثة الأثرية السورية بإدارة الأثاري أحمد طرقجي خلال العقدين الماضيين من الزمن. ويمكن تلخيصها كالآتي:

عُثر على البنية الأساسية لقصر متواضع متناسب مع البنية المعمارية المحيطة التي تؤلف مساحة تل سكا الكلية المقدرة بـ 6,5 هيكتاراً، وهي مساحة متواضعة مقارنة بعواصم ذلك العصر، فالتل قد لا يكون عاصمة مملكة، بل قد يكون مركزاً مدنياً مهماً تابعاً لعاصمة أكبر قد تكون دمشق القديمة أو أبوم الاسم الأقدم بالذات، والتي لم نتمكن حتى اليوم من إجراء تنقيبات مهمة بسبب السكن الدائم فيها من تلك العصور حتى

اليوم. كما تدل اللقى الأثرية التي عرضها الطرقجي في مواسمه الأخيرة، على وجود بنية معمارية لورشات تصنيع محلي للفخار والأنوال النسيجية والزخرفة الخشبية المصدفة، وكان هذا أول كشف لأقدم ورشات الزخرف الدمشقي التقليدي، أي المصدفات والمعشقات الزخرفية المختلفة المعروفة باسم أرابيسك Arabesques والمصدف المعروف بـ Nacre، وهو خاصية دمشقية فريدة في العالم. أمَّا العمل الفني التصويري الذي اكتشف على جدران القصر، فهو الآخر، يقدم برهاناً ساطعاً وفريداً من عصره، على مدى تطور الذوق الفني التصويري، إذ يقدم لنا مشهد شخصية ملكية مهيبة تذكرنا برسوم جدار قصر ماري الأقدم، ويذكرنا اللباس، وهيئة الرأس والشعر بتأثيرات مصرية. هذا ويؤرخ الطرقجي هذه المكتشفات الأثرية في التل بعصر البرونز الوسيط أي ما بعد نهاية ماري وبدايات التدخل الحثي في القرن السادس عشر ق.م، وهذا ما يتطابق نسبياً مع تاريخ النصين المذكورين.

التحليل اللغوي والتاريخي لرقيم سكا 2:

يتعلق النص القضائي هنا بمخالفة مالية للمدعو لقمادو، الذي تهرب من دفع الضريبة الواجبة عليه. ويشير النص في السطر الثاني، إلى أن شيخ /Nasiku قرية «أوجلسات»، الذي يفترض أنها تقع في محيط موقع الإجراءات القضائية المدونة هذه في السطر الثالث، وهو ما يوحي أو يفترض أن يكون اسماً لموقع تل سكا الذي وجد فيه الرقيم. ولعل تأكيد ذلك بصورة قاطعة يتطلب برهاناً أو شاهداً آخر. ونفهم من السطرين الرابع والخامس أن لقمادو قد هرب من المكان حيث وجب عليه دفع الضريبة. ثم يشير النص في الأسطر 6، 7، 8 إلى أن السيد إيلي أوشتالو قد تقدم ليدفع الضريبة عنه. عندئذٍ قرر الشيوخ إعطاء بيت لقمادو إلى إيلي أوشتالو (السطر 9، 10، 11) ويتابع الكاتب ليسجل أن السيد إيلي أوشتالو قد طالب ببيت لقمادو لقاء دفعه الضريبة عنه (الأسطر 12، 13، 14) ويبدأ النص بدءاً من السطر 15 بتحديد قيمة الضريبة وهي 5/

16 وزنة مانا (4.85غ) من الفضة المختومة (سطر 15) و1 "جون" وزنة 30.300 كغ! ويبدو أن السيد زمري ايرخ (س. 17) والسيد أخي مالك قد أؤتمنا على القيمة هذه.

يبدأ ذكر الشهود من السطر 20 خلف الرقيم، ونتعرف مجموعة من سبعة عشر شاهداً ذكوراً طبعاً لا امرأة بينهم، وهم: أدوبخلي واشميا ونبسبخدو وموتيان وإيانيلو وخنادو واخلي ابن شارو وكزاز اسجال، ورخ نيتان؟ ونخ نيتان؟ بن دومو إيلومي ومرادو وزمري ليم وإياخنيدا وإياختكادوا ابن دومو إلباخلي وأبادو؟ واديني..

ويُختم النص بتاريخ شهر لم يبق من اسمه سوى ثلاثة مقاطع والثالث مهشم ib – ba- na، ثم تذكر السنة واسم ملك يلفظ "أميكولو" يلية اسم السيد أبي سمير ؟.

يمكن استخلاص النتائج التاريخية واللغوية لهذا الرقيم المسماري كما يأتي:

1- صار من المؤكد أن منطقة دمشق وغوطتها استخدمت الكتابة المسمارية بلغة أكادية قومية آنذاك، وبلهجة تقترب من لهجة محفوظات ماري، وأن الأسلوب الأدبي في هذا النص الحقوقي لا يختلف عما عرفناه سابقاً في العصر البابلي القديم، أي نهاية عصر البرونز القديم وبداية الوسيط.

2- لا نلمس فروقاً تذكر في تركيب الجملة الأكادية ونحوها وصرفها، فقد لخصت المخالفة الضريبية بوضوح، ومن ثم الإجراءات القانونية والقضائية التي اتخذت بحق صاحب المخالفة الهارب.

3- يعكس النص القضائي هذا وجود سلطة في تل سكا، إلا أن المشكلة أنّا لا نستطيع الجزم بمطابقة لاسم المدينة أوجلسات في مطلع النص سطر 30 وسطر 50.

4- تدل طبيعة أسماء العلم ومعانيها على تطابقها مع الطبقة السكانية الأمورية/ العمورية في سورية والعراق التي أسست مدناً جديدة وحضارة متجانسة في مدن أشهرها حلب وماري وكركميش وبابل وشباط أنليل وآشور وأوجاريت – فلدينا أسماء مثل زمري– يرخ ولقمادو واشم وإيليا وأخي مالك إلخ إذ يمكننا القول إنَّ الأسماء الواردة في هذا النص القضائي جميعها هي أسماء سورية أمورية.

5– إن اسم المكان الجغرافي الوحيد في النص الذي يسبقه إشارة uru هو "أوجلسات"، وهو اسم معروف جغرافياً ورد بصيغة "أوكلسات" في زمن الحثيين.

وهذا يدفعنا للاعتقاد بوجود سكن أجنبي أو تمثيل لسلطة أبعد ربما هي قطنا، وربما كانت حورية أو حثية، ذلك أننا نعلم أن تنامي القوى الحثية الأناضولية وتدخلها في سورية قد بدأ بعد انهيار ماري بدءاً من القرن السادس عشر كما هو معروف، ولكن هذا يتطلب براهينَ ونصوصاً أخرى، ربما يقدمها لناتل سكا في حفائر لاحقة...ونشير في هذا الصدد إلى أنَّ الرسوم الجدارية الآنفة الذكر تحمل بعض المؤثرات المصرية؛ ونحن أمام احتمالين لوجود تأثير خارجي في سكا... مصري أو حوري / حثي/ أو الاثنين معاً! إلا أن ما يثير الاهتمام أن النص القضائي وعناصره الإنسانية هي سورية – أمورية، تكتب بلغة أسلافها الأكادية.

6– يرد في نهاية النص أي السطر الأخير اسم علم ammi – qùlúh lugal أمي / عمي كولوخ، ويتلوه جزء من إشارة ملك ويسبقه إشارة مهشمة لعلها " مو " mu التي يبدأ بها تاريخ النص، كما هي العادة في النصوص المسمارية إذ تؤرخ بسنوات حكم الملوك.

7– من الواضح إذاً أن النصين الجديدين من سكا، لم يقدما لنا إضافة حقيقية إلى تاريخ دمشق واسمها بالذات. ولكن سكا التي لا تبعد سوى عشرين كيلومتراً عن مركز مدينة دمشق القديمة، والمعلومات والنتائج التي توصلنا إليها، يجب أن تضاف إلى معلومات أخرى عندها نستطيع أن نفهم موقع دمشق السياسي والجغرافي، فإذا استعرضنا معلومات من نصوص ماري التي وردت في رسائل قادة آشوريين في عهد ملك آشوري ألا وهو شمشي أدو ، الذي وجه حملة إلى لبنان وذكر لنا اسمه الجغرافي أول مرة في التاريخ "مات لبان" mat – la – ba – an ، وكان قصد حملة شمشي أدو هو أخشاب أرز لبنان ولا شك، وسلكت قواته طريق تدمر قادمة من شوبات انليل (تل ليلان قرب القامشلي)، وتعرضت لبعض المواجهات في بلاد آبوم Apu أي غوطة دمشق، وذكروا مواقع هي نازالا – القريتين وأدارا – عدرا وهما

مواقعان معروفان قرب دمشق..... وهكذا فإن تعرف على تاريخ دمشق الأقدم، يأتينا من مواقع الجوار في الغوطة ومصادر ممالك سورية بعيدة (ماري – وآشور)، في حين أن المدينة القديمة في دمشق تبقى صامتة بسبب سكنها وعدم الجدية وقناعة أصحاب القرار بإجراء أسبار وحفائر في طبقات البرونز، بأسلوب حديث دون المساس بالبنية السطحية الحالية. ومثالنا على ذلك ما يفعله العدو الصهيوني في القدس، حيث ثقبها ونقبها في طبقاتها الأثرية جميعها دونما نتيجة تذكر.....إلا أننا نعتقد أن أسباراً في طبقة البرونز الدمشقية سوف تميط اللثام عن حقائق تاريخية تدحض روايات الخيال التوسعي لكتاب التوراة وبقية الأسفار، وتضع حداً للشطط والنفاق الصهيوني الذي يبني تاريخاً قديماً مصطنعاً، ويطمس التاريخ الحقيقي لأسلافنا الآشوريين والآراميين والسريان.

وختـامـاً:

لا بدَّ من تلخيص النتائج التي توصل إليها هذا البحث، والتذكير بما سبق وتوصلت إليه البحوث، التي تناولت تاريخ دمشق وغوطتها في العصور القديمة :

1- يوجد في حوض دمشق وريفها سكن إنساني واستقرار زراعي منذ العصور الحجرية المتأخرة والنحاسية.

ما زالت حفائر عصور الفخار قليلة ونادرة، إلا أن بعضها أجري مؤخراً في الأطراف الشرقية الجنوبية ودلت على وجود سكن واستقرار في هذه المرحلة، إلا أننا ما نزال بحاجة للمزيد من الحفائر والبراهين الأثرية.

من جهة أخرى لا نمتلك نصوصاً عن منطقة دمشق تعود إلى الألف الثالث، ومن ثَمَّ نجهل تاريخها في هذه المرحلة التي أبدع فيها الإنسان العراقي والسومري نظاماً للتدوين والكتابة، مما سمح لنا بتعرّف نشوء الفكر والفكر الديني خاصة. وعرفنا كثيراً عن نشوء المدن والدول في بدايات النهضة الحضارية الأولى في تاريخ البشرية، في كل من العراق وسورية ومصر. ومع افتقارنا إلى ما تقدم من براهين على تاريخ دمشق في الألف الثالث إلا أن بعض الإشارات الأثرية والفنية، وورود اسم جبيل Gu – ub-la اللبنانية في نصوص سلالة أور3، يشير بوضوح إلى وجود عبور للتجارة وتبادل المواد الضرورية

بين الفرات السومري الأكادي والساحل السوري اللبناني الفلسطيني ومصر ووادي النيل. وأن حوض دمشق وجنوب سورية كان ممراً ضرورياً ووحيداً لعبور الأفراد والأفكار والبضائع وتنقلها.

2– تبدأ البراهين الكتابية انطلاقاً من الألف الثاني ق.م، تُذكر كمنطقة تحت اسم آبوم Apum في نصوص ماري في القرن الثامن عشر، والنصوص المصرية تحت اسم Upi أوبي، ولكن لم يكن للمنطقة أية أهمية سياسية.

3– كانت منطقة أبوم في عز التدخل الحثي في سورية والصدام مع مصر تشكل الحدود الفاصلة بين القوتين الرئيستين في ذلك الزمن، وقد ذكرت في نصوص الخصمين دونما الإشارة إلى أي دور عسكري أو سياسي.

4– ويبدو أن منطقة دمشق وبدايات المدينة بالذات، قد كانت متأخرة حضارياً عن مدن شمال سورية ووسطها مثل قطنا وحلب وماري وأوجاريت، فكانت أقرب من حيث التواصل الاجتماعي والثقافي إلى مواقع متواضعة في لبنان – جبيل وفلسطين وحاصور وغيرها، وتجلى ذلك في نصوص تل العمارنة الأكادية التي ظهرت في مصر وتعود للقرن الرابع عشر ق.م، وهي تشير إلى استمرار الثقافة الأمورية – الأكادية في سورية، ويأتي النصان الأقدم من سكا ليؤكدا هذه الحقيقة أي الاستمرارية الحضارية.

5– كان أول ظهور لاسم دمشق بوصفها عاصمةً لدولة هو في نهاية القرن العاشر فقط، في حين كانت حلب وماري وقطنا وكركميش وأوجاريت وآشور وبابل عواصم شهيرة، وكان الآراميون قد بدؤوا يجففون حوض الغوطة ويستصلحونه أول مرة في التاريخ، وأطلقوا على دولتهم اسم آرام – دمشق، ومع قلة، لا بل ندرة المعلومات الكتابية المباشرة عن آرام دمشق، إلا أن بعض المعلومات والكتابات الحولية الآشورية، قد عكست لنا صراعاً مريراً بين الآراميين الدمشقيين وهؤلاء الجيران في الشمال والجنوب الفلسطيني.

6– أصبحت دمشق الآرامية ذات سيادة ونفوذ سياسي على المستوى الإقليمي في القرن التاسع وحسب. وأصبح هذا النفوذ دولياً امتد ليشمل سورية بالكامل وحوض الفرات. وكان خطر الآراميين يهدد آشور وبابل وشكلوا سداً منيعاً أمام نفوذهما ومصالحهما في غرب سورية والمتوسط.

7- إن المرويات الإخبارية التوراتية ليست مصدراً محايداً عن تاريخ الصراع الدمشقي – اليهودي، ولكن من الواضح وفق هذه المعلومات أن مملكة آرام فرضت سيطرتها على فلسطين آنذاك.

8- بلغت قوة آرام الدولية زمن بير – حدد Bir – Adad وحزائيل Hazael ولم يمنع العداء التقليدي بين آرام دمشق – وكهنة يهودا، زمن أخب Ahab وحدد إدر Hadad – idr ملك آرام – دمشق أن يتحالفا ضد الخطر الآشوري القادم من الشمال، ومع نهاية القرن الثامن ق.م تصاعدت قوة الآشوريين زمن ملكهم تجلات بلاصير الثالث Tiglath – Pileser III ولم يتمكن الحلف الدمشقي من الصمود أمامهم، وتمكن الآشوريون من الاستيلاء على آرام – دمشق وجنوب سورية الفلسطيني عام 732 ق.م. هذا ونفتقر إلى معلومات كتابية وأثرية في هذه المرحلة المهمة من التاريخ الدمشقي والفلسطيني خاصة.

9- وهكذا استطاعت آرام دمشق أن تكون قوى سياسية وثقافية إقليمية ودولية خلال قرنين من الزمن تقريباً من القرن العاشر إلى التاسع ق.م، قبل أن تخضع لحكم الآشوريين أي السوريين الشماليين، وحاولت الثورة والمقاومة ضدهم في عهد شروكين – صارجون الثاني عام 720، دون جدوى رغم تحالفها مع بعض القوى المحلية، ثم يلف الغموض تاريخ دمشق السياسي وتفقد مكانتها كعاصمة، ولكنها بقيت غنية بفضل غوطتها وزراعتها، ونمت كمدينة أكثر تحضراً من خلال انتشار لغتها وثقافتها الآرامية، ولهذا كانت مهيأة لتعود لدورها الريادي وتصنع مجداً وانتصاراً جديداً في العصور اللاحقة.

ملحق 1

تل سَكَّا

أعمال التنقيب : المديرية العامة للآثار والمتاحف.

الإدارة : أحمد فرزت طرقجي.

المواسم الميدانية : الموسم الأول 1989.

الموسم الثاني والعشرون 2011.

نتائج الأعمال الأثرية:

يقع تل سَكَّا على بعد نحو 20كم إلى الجنوب الشرقي من مدينة دمشق، عند الحدود الغربية من بادية الشام، في وسط سهل خصيب عند أحد المحاور التي كانت تربط مدينة حاصور في سهل الحولة مع مملكة ماري والعالم الرافدي.

تتميز السوية العائدة لعصر البرونز الحديث (سَكَّا III) بوجود عدد من المساكن المرتبطة مع مشاغل على علاقة مع صناعات منزلية بسيطة (حياكة، نسيج، صناعة فخار) التي وجد فوق أرضياتها عدد من المنتجات الفخارية المحلية والمستوردة المنوعة.

أما السوية الرابعة العائدة إلى عصر البرونز الوسيط الثاني (سَكَّا IV) فتتكون بشكل أساسي من بناء كبير يتخلله فناء مستطيل الشكل، يحف به رواق قائم على ستة أعمدة، وتقوم حوله عدد من الغرف والوحدات المعمارية المنوعة. زينت الجدران– فوق طبقة من الكلس – بالعديد من المشاهد الملونة، التي تحمل فضلاً عن الأنماط المحلية، عدداً من التأثيرات الرافدية والمصرية، كذلك فقد تنوعت المنتجات الفخارية، وكانت تتألف من جرار تخزين كبيرة، وجرار ثنائية اللون، ومشربيات بسيطة أو من النمط الأسود الملمع.

نشير أيضاً إلى أن سوية التأسيس الأولى التي تعود إلى بداية الألف الثاني ق.م، (سَكَّا V) قد ضمت عدداً من الجدران، فضلاً عن قبر صغير من النمط الصندوقي الذي ضم عدداً من المنتجات الفخارية المنوعة، المؤرخة في عصر البرونز الوسيط الأول.

ملحق 3

التسلسل الطبقي في تل سَكَّا

السوية الأثرية	العصـــر			العنصر المعماري الرئيسي
SAKKA I	العصر الإسلامي (العثماني و المملوكي)			قبـور
SAKKA II	العصور الكلاسيكية	SAKKA II A	المرحلة البيزنطية	قبـور
		SAKKA II B	المرحلة الرومانية	
		SAKKA II C	المرحلة السلوقية	
SAKKA III	عصر البرونز الحديث	SAKKA III A	عصر البرونز الحديث II	بيوت سكنية و ورش حرفية
		SAKKA III B	عصر البرونز الحديث I	
IV SAKKA	عصر البرونز الوسيط II			مبنى إداري(القصر الملكي)+ نصوص مسمارية+ رسومات جدارية + قسم خدمي
SAKKA V	عصر البرونز الوسيط I			قبر يضم رفاة امرأتين و طفل أسفل أرضية إحدى الغرف

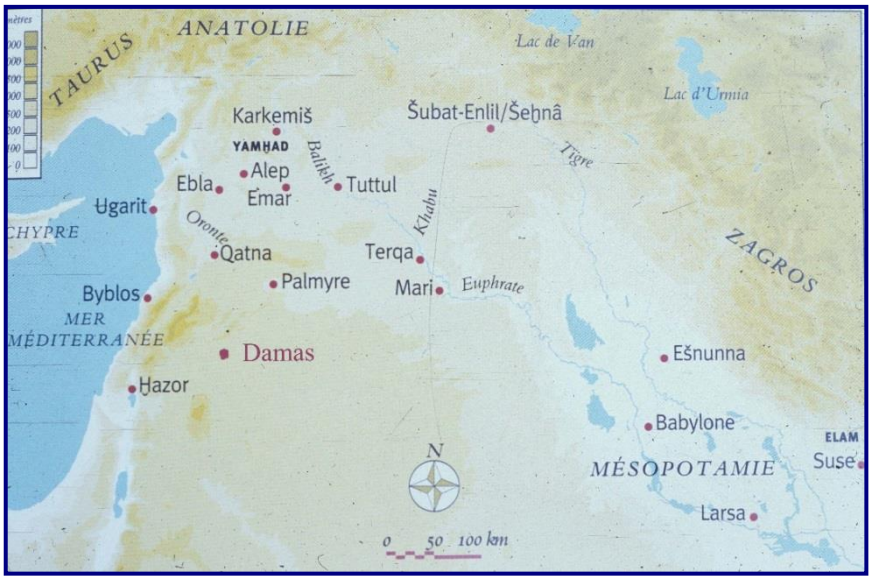

خريطة بلاد الشام

خريطة سورية

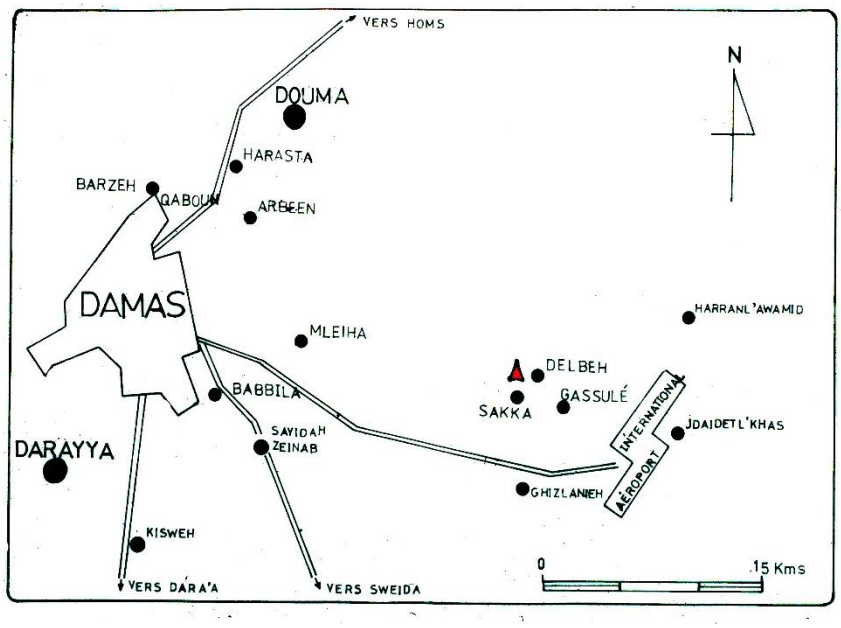

مخطط الموقع

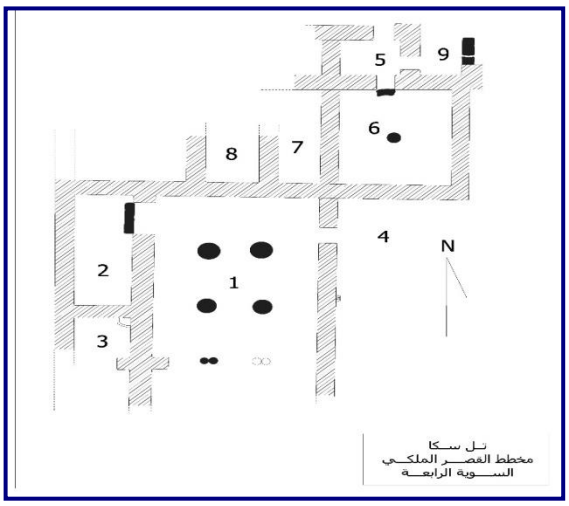

مخطط قصر السوية الرابعة

النص رقم 1 عام 2008

النص رقم 2 عام 2010

بقايا رسومات جدارية تزينية السوية 4

أمير يعتمر قلنسوة أوزيريس

القسم الخدمي السوية الرابعة

بيت من السوية 3

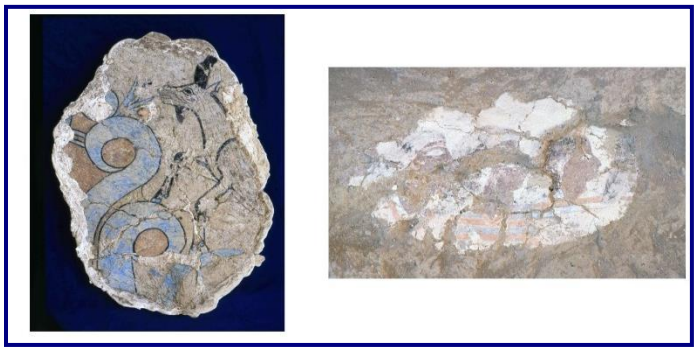

بقايا رسومات جدارية من الغرفة رقم 5

تل سكا

ثقالات طينية لأنوال من السوية 3

ثقالات طينية لأنوال السوية 3

ثقالات نول طينية

جدران قصر السوية 4

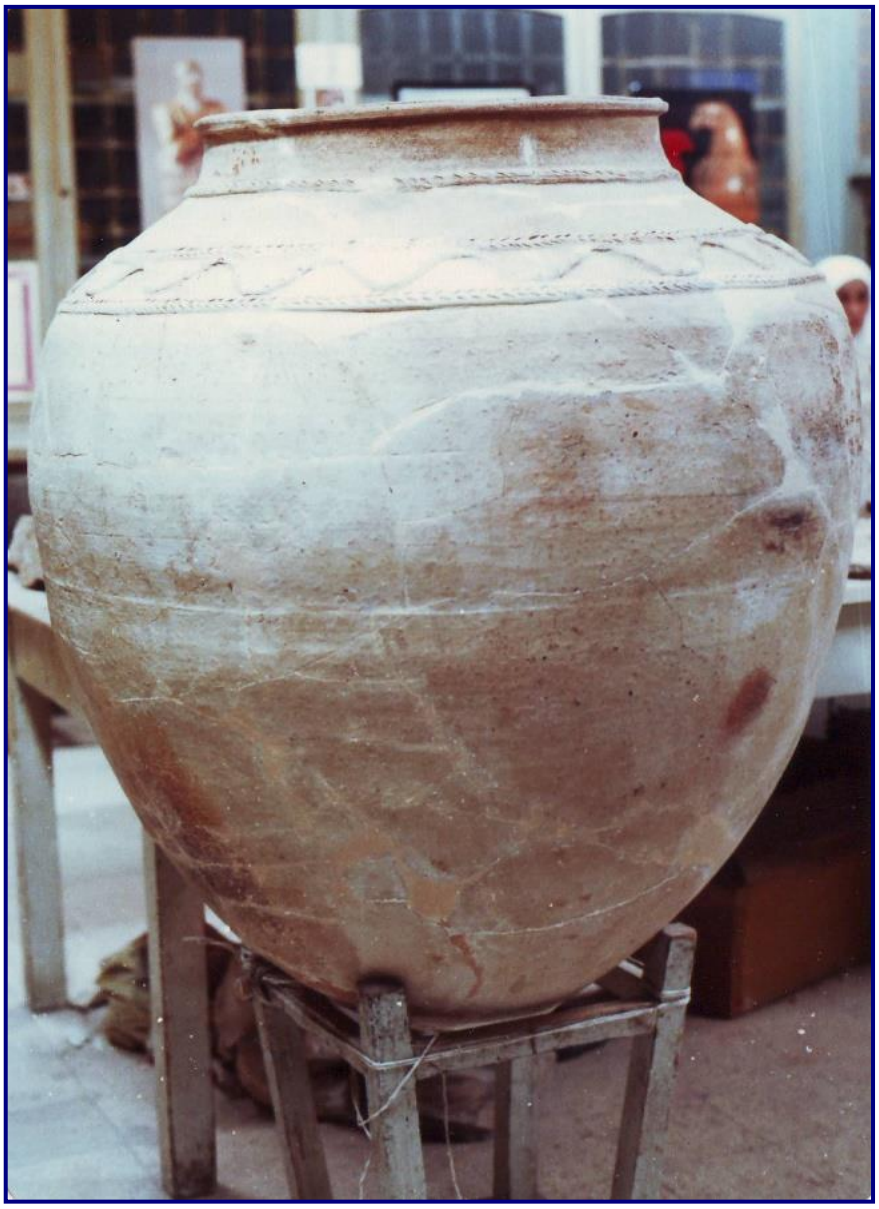

جرة تخزين من السوية 4

صورة جوية للموقع

رسومات جدارية من الغرفة رقم 9

قالب لصب المعادن السوية III a

فخار تل اليهودية السوية – IV

المصادر والمراجع

1. يجب التذكير دوماً أن مصادر التاريخ القديم (أي خلال ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد) متعلقة بالنصوص المسمارية التي تشكل نسبة ثمانين بالمئة منها. والباقي هي نقوش أبجدية فينيقية وآرامية. وقد اكتشف الأوروبيون ولاسيمَّا الفرنسيين والإنجليز وأخيراً الطليان هذه المصادر جميعها نتيجة حفائرهم وسيطرتهم على البلاد خلال عقود الاستعمار الحديث للعراق والشام. ولذا فمن العبث الحديث عن مصادر باللغة العربية.
2. ويجد الباحث المختص قائمة مصادر ومراجع تاريخ دمشق القديم حتى عام 1987 مجموعة في أطروحة دكتوراه W.T.Pitard المذكورة أدناه. ويجد بقية السنوات بأشكال متفرقة وأهمها LAPO أدناه.
3. كما أن أطروحة الطرقجي لدرجة الماجستير باللغة العربية بجامعة دمشق عن تاريخ دمشق القديم. وكذلك بحوثي عنها تفيد في تقويم هذا التاريخ العريق في السنوات الأخيرة، ونورد هنا أهم ما يلزم لبحثنا.

[1] Wayne T. Pitard, Ancient Damascus, a Historical Study of the Syrian City-State from Earliest Time until! Its fall to the Assyrian in 732 B.C., Indiana 1987; Voir aussi p. 2-28 pour une bibliographie sur Damas.
[2] J. Sauvaget, « Esquisse d'une histoire de la ville de Damas », Syria 26, p. 314- 358, 1934.
[3] D. Charpin, M.A.R.I. 5, p. 129-140.
[4] D.O. Edzard, Die Keilschrift breife der Grabungkampagne, 1969, p. 52. Pitard, op. cit., p. 7-8.
[5] W.F. Albright, The Vocalization of the Egyptian Syllabic Orthography, 1934, p. 62; 1971, p. 129.
[6] Alibright. 1940, p. 34-35. Posener, 1940, E 35, E 34, p. 8 1-82.
[7] J.-M. Durand, LA.PO, 1, II, III... Paris, 2000.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2013/6/20